حزب الانقلاب

السؤال المطروح للمناقشة الآن يدور حول معنى الحزب، ماهو الحزب وما هي الصورة الصادقة للحزب الذي تحتاجه أمتنا. لا اريد أن أبحث في حزب البعث العربي بصورة خاصة ولا أريد أن أدخل في موضوع طويل مفصل عن مبادىء البعث العربي، كل ما أبغيه من هذا الحديث هو ان احدد بصورة واضحة ومختصرة الفارق الجوهري بين وظيفته في أمم أخرى وأوضاع مختلفة.

في أمم العالم الراقية ينظر الى الحزب على أنه نموذج للدولة أو تصميم لدولة مقبلة أو لاصلاح دولة قائمة، فالحزب يتخذ في مبادئه وفي تشكيلاته وأعماله أوصاف الدولة وأهدافها. وغاية ما يطمح اليه الحزب في تلك البلاد ان يعد تمام الاعداد جهازا جديدا يستطيع في الوقت المناسب عندما تتوافر الشروط وتحين الفرصة أن يستلم الحكم ويدير الدولة. فهل هذا هو مبتغانا وهل هذا ما نحتاج اليه وهل هذا هو مايلبي حاجتنا ويسد النقص الذي نشكو منه؟

عندما تقوم الاحزاب في البلاد ذات الاوضاع السليمة السوية لا يكون النقص الا في الدولة، ولا يكون هذا النقص في الدولة نقصا فادحا جوهريا خطيرا، فيعمل الحزب في وقت قد يطول وقد يقصر على اعداد الرأي العام لتأييد وجهة نظره او رأيه وعلى اعداد أعضائه والصفوة منهم لكي يستطيعوا عندما يتولون الحكم أن يصلحوا ذلك الخطأ الذي يرونه في الدولة في ناحية أو أكثر. والدليل على بقاء الامة سليمة في الدول الاخرى هو ان الاحزاب على اختلافها وتناقضها أحيانا يكمل بعضها عمل بعض. ولكن الحزب هناك قلما يتعرض للأمة لأن الخلل في البلاد ذات الاوضاع السليمة لا يتجاوز الدولة ولا يصل الى الامة، فالامة هناك قائمة وهي شيء حقيقي راهن قوي منسجم للحد الكافي واع لذاته ومصلحته، وانما الخلل في من تولوا ادارة تلك الامة وفي الجهاز الاداري او ناحية من نواحي ذلك الجهاز.

لننظر الآن في حالتنا، في حالة الامة العربية، هل النقص والخلل هما في الدولة فحسب، هل كل ما نحتاجه هو ايجاد دولة قوية واعية منظمة؟ ولنتساءل لكي

يتوضح الموضوع أكثر من ذلك، لنتساءل ما هي الدولة؟ الدولة آلة لا أكثر، الدولة جهاز، الدولة جسم لا روح فيه وانما هي آلة مدبرة عاملة لان المشرفين عليها هم أشخاص احياء غالبا ما يكونون من ذوي الخبرة والقدرة. وكل ما يطلب من الدولة هو أن تضمن تسيير الافراد وسلامة العلاقات بين الأفراد والمواطنين وبين ذلك الشيء المعنوي الذي هو الدولة والممثل في حكومة ومجلس وغير ذلك، فهل اذا تصورنا امكان قيام دولة منظمة في بلادنا نستطيع أن نطمئن الى ان الغاية الكبرى قد بلغت أم هل نستطيع أن نتصور امكان قيام دولة مدبرة ومستقيمة الحالة اذا لم يكن ثمة أمة حية منسجمة واعية؟ فالفارق كل الفارق بين حياتنا وحياة الامم الراقية هو ان ما نحتاج اليه هو معالجة الامة، وما نقص الدولة عندنا وكل النواقص الفادحة التي تعتري الدول القائمة في البلاد العربية الا نتيجة لذلك النقص الاساسي الموجود في حياة الامة.

فاذا صح هذا التفكير يكون واجب الحزب ورسالة الحزب الذي ينشأ في بلادنا ويعول عليه لتلبية الحاجات العميقة الاساسية أن يعالج الامة قبل معالجة الدولة، وتكون بالتالي رسالته أن يكون على صورة الامة المبتغى خلقها او بعثها لا على صورة الدولة، فاذا قامت الاحزاب في بلاد الغرب على صورة الدولة وكانت تكتفي بالجسم دون الروح فلأن بلادهم لاتتطلب أكثر من ذلك، ولكننا نحن في حالتنا هذه، في وضع الامة العربية الآن، انما نحتاج الى حزب، الى حركة تمثل بالدرجة الاولى عنصر الروح وتخلق عنصر الروح والحياة وتتوفر فيها هذه الروح لتشع منها فيما بعد على المجموع الأكبر، والحزب الحقيقي، الحزب الحي، الذي يمكن أن يؤدي رسالة في العصر الحاضر للامة العربية هو الذي يجعل هدفه خلق أمة أو بعثها شريطة أن يحقق هذا الوصف في نفسه أولا، أي أن يكون هو أمة مصغرة للامة الصافية السليمة الراقية التي يريد أن يبعثها. ليس غريبا أن نسمع في بلاد العرب من أقصاها الى أقصاها منذ حين وخاصة في الزمن الاخير تتردد كلمة تخرج من أفواه البسطاء قبل المثقفين وكأنها كلمة السر وكأن فيها العلاج والحل والخلاص هي كلمة الانقلاب.

ليس غريبا أن نسمع ذلك اذا رجعنا الى الماضي والى التاريخ واستجوبناهما، عندها نرى حقيقة لاتكاد تكون موضع خلاف، وهي ان العرب في تاريخهم الطويل

لم يعرفوا غير نوعين من الحياة، الانقلاب والانحطاط، خلافا لكثير من الامم التي عاشت في الماضي ولكثير من الامم التي تعيش في الحاضر، هذه تكاد تكون ميزة أو علامة فارقة حقيقية للامة العربية. اما أن تقوم بانقلاب يحدث نهضة تفيض على بلاد العرب وتبلغ الشمول وتصبح نهضة عالمية انسانية واما أن توغل في النوم والانحطاط. فليس من حل وسط في تاريخ العرب، أوما يصح ان يسمى تطورا، في حين أننا نعرف أن تاريخ الامم الاوروبية منذ مئات السنين عبارة عن تطور في أكثره، والانقلاب هو الاستثناء والشذوذ عن القاعدة. فاذا نظرتم الى ما يقاسيه العرب في هذا العصر من المصائب والكوارث التي تتوالى عليهم، وكل واحدة أثقل وأفدح من التي سبقتها، اذا تدبرتم هذا الواقع المر الذي نعيش فيه والذي يكاد يوصل الى اليأس وأخذتم بعين الاعتبار تلك النظرة التي ألمحت اليها، وهي أن الامة العربية بطبيعتها لاتعرف حلا وسطا فهي اما أن تعيش على الانقلاب وأما أن تعيش في الانحطاط، واذا نظرتم من جهة الى قسوة الواقع ومرارته، ومن جهة اخرى الى تلك الظاهرة التي هي بمثابة قانون، أدركتم ان ايغال العرب فيما يبدو في الظاهر انه تأخر وانحطاط هو عبارة عن تحفز للانقلاب الذي هم مهيأون له.

اذا كان الجسم جبارا فأفضل له العري من لبس ثوب ضيق، واذا كانت النفس عظيمة الاهداف والغاية فالفقر والعدم أشهى اليها من المادة المتواضعة التي لاتروي رغبتها وعظيم حاجتها. فمصيبة العرب في هذا الدور هو أن الطبقة التي فرضت نفسها عليهم تعيش في طريق معاكس تماما لنفسيتهم وآمالهم، فهي طبقة شائخة طبقة فاسدة أفسدها الترف، أفسدها الاستثمار، أفسدها ظلمها للآخرين، ونفسية الظالم، نفسية المستثمر، نفسية الغاصب هي دوما نفسية شائخة هرمة متعبة لذلك تنظر هذه الطبقة الى أبسط الامور وتحسبها غاية ما يطمح اليه ويرغب فيه، تنظر الى مظاهر بسيطة من التقدم فتقول للشعب، للأمة العربية جمعاء، هذا أقصى ما يمكن أن تصلي اليه. عندها تفضل هذه الامة التي اعتادت على أحد حالين لا ثالث لهما اما أن تلبس الثوب الذي يوافقها أو أن تبقى عارية، اما أن تملك الوسائل التي تساعدها على تحقيق رسالتها في الحياة او تكون فقيرة معدمة، عندها تفضل هذه

الامة ان يطول أجل خلاصها من أن تقبل بخلاص مزيف، فاذا قلنا ان الحزب الذي تناديه الامة العربية من أعماقها والذي تدعوه الامجاد العربية من ماضي التاريخ العربي السحيق هو الحزب الذي يجعل الامة غاية له لا الدولة، وان يكون هو امة مصغرة تكون نموذجا للامة الشاملة، اذا قلنا ذلك لا نكون قد ابتعدنا عن الحقيقة اذ كلنا نشعر هذا الشعور، نشعر أن احتياجنا ليس الى اصلاح جهاز الدولة أو ترميم خلل موضعي وانما هو الى انقلاب عميق شامل. فاذا كان ذلك صحيحا، اذا كانت هذه الحاجة صادقة فكيف يكون الحزب صاحب الرسالة قادرا على حمل رسالته؟

هو كما قلت ان يكون امة الانقلاب قبل ان يحقق انقلاب الامة وهذا يعني ان هوة سحيقة، ان فارقا أساسيا حاسما قد وضع بين الواقع، بين الحياة الواقعة في بلاد العرب، وبين هذا التكوين الجديد الذي هو الحزب، فرقا جوهريا في النوع، فرقا مطلقا لا يقبل النسبية ولا يتعرف عليها. ان يؤلف الحزب من نوع جديد يختلف في كل شيء عن الواقع الذي نثور عليه ونريد التخلص منه. فأمة الانقلاب التي هي الحزب يجب أن تبرهن ليس فقط في الاهداف المكتوبة، ليس فقط فيما تضعه على الورق من برامج ومناهج وأساليب التنظيم، بل تبرهن على عقلية جديدة، على روح جديدة، على خلق جديد، لاتجمعه بالواقع الفاسد اية رابطة أو جامعة، ان لذلك علائم ودلائل وليس من الصعب أن نلمس الدلائل التي تدلنا على ان هذا التركيب الجديد، هذه الامة المصغرة، هذا الحزب، هو فعلا انقلابي ام انه لايحمل من الانقلاب الا اسمه وعنوانه. وهذه الدلائل هي ان تتحقق في الحزب نفسه، في أخلاق أعضائه واسلوب عملهم وفي طريقتهم نحو تحقيق أهدافه، أن تتحقق كل الفضائل التي يبغون خلقها في المجتمع المقبل. لايمكن أن يكون الحزب مماثلا مشابها متجانسا مع الواقع الفاسد المريض وأن يدعي أن باستطاعته خلق مجتمع صحيح جديد، فكما اننا نريد أن تكون امتنا في مستقبل قريب أمة حية منسجمة حرة طليقة من كل الاعتبارات البالية، يحتل فيها المواطن المكانة التي تؤهله اليها كفاءته وخلقه واخلاصه، كذلك يجب أن يكون الحزب الانقلابي محققا لهذه الصفات في تشكيله، وفي أثناء طريقه نحو غايته. اذا لم يكن الحزب الانقلابي مجالا لظهور

الكفاءات المخبوءة في الامة، اذا لم يكن مجالا لاحتلال كل فرد حسب ما تؤهله اليه قدرته لا اسمه ولا اسم عائلته، اخلاصه لا وجاهته او وسائله المصطنعة الخارجية، اذا لم يكن الحزب منذ بدئه في طريق النضال قادرا على تحقيق هذه الفضائل التي يدعو الشعب اليها ويسعى الى تحقيقها في الامة فكيف يمكنه أن يحققها في ما بعد؟ لنقل باختصار ان مستقبل العرب متوقف على هذه المرحلة من النضال، فاذا لم نقدر خطورتها التاريخية، اذا لم نكن واثقين من اننا نكتب صفحة جديدة في تاريخنا وفي تاريخ الانسانية فلن نقوى على تحقيق شيء. اما ان نأتي بشيء مبدع خطير يقلب حياة العرب من الذل الى المجد ومن الانحطاط الى الرقي، واما ان تفشل محاولتنا فشلا تاما، لن نعرف الحل الوسط، وقديما قلنا في أكثر من مناسبة ان التطور يعني التأخر واننا لانستطيع أن نعتنق النظرة النسبية، وان نقول ان هذا الحزب رغم كل أخطائه ونواقصه هو خير من كل الاحزاب الاخرى.

هذا لايمكن أن يسمى مديحا او حسنة أو فضيلة، الفضيلة الحقيقية التي يجوز أن نسميها فضيلة في الحزب هي عندما نقول انه يناقض الاحزاب الاخرى والواقع الفاسد. ان النظرة النسبية تقضي عليه بالعقم، وبالفشل على كل حركة. فنحن اذا وعينا هذه المسؤولية، وهي مسؤولية تاريخية، واذا قمنا بما ترتبه علينا من واجبات نكون اعددنا لمستقبل الامة العربية ليس فقط جنودا محاربين بل أفرادا مناضلين، وأشخاصا واعين مفكرين. بل اننا نكون أعددنا لمستقبل الامة العربية روحا صادقة أصيلة قوية ذات طاقة تقدر وتستطيع أن تفجر الحضارة تفجيرا، وأن تملأ صفحات التاريخ بالابداع في مختلف نواحي الحياة. ولا ننسى أن حضارة العرب في القديم لم تكن ممكنة وما كانت لتتحقق لولا تلك الفترة النضالية التي لم تتجاوز عشرات السنين، ولكنها كانت هي الخميرة الروحية، كانت هي الكنز النفسي الخلقي الذي سمح للعرب فيما بعد أن يتوسعوا وينتشروا ويختلطوا بأمم عديدة في جو حضاري مترف ومع ذلك أن يحتفظوا بقوة الابداع وبقوة الخلق.

شباط ١٩٤٩